ترى فيما كان بيننا من القطيعة موجبًا لاجتنابها ... لو كان قلبها خاليًا من هوى آخر لما استطاعت ذلك، ولفعلت كما كنتُ أفعل أنا إلى هذا المساء ... والأغلب الأرجح أن هذا البائع يعلم من خفية الأمر أكثر مما يبوح به أو يريد أن يبوح، ألا ترى إلى غمزات عينيه وحركات وجهه ونغمات كلامه؟ فماذا على المنحوس لو أفضى بما عنده وأراحنا من هذا العناء؟

وعاد صاحبنا يتساءل في ضميره: ما عنده؟ أهكذا جزمت سريعًا بأن «عنده» سرًّا وأنه يستطيع أن يبوح بأكثر مما قال؟ ألا يجوز أنه لَمْ يعرف سرًّا على الإطلاق، وأن ما حسبته غمزات ونغمات مريبة في صوته إنما هي عادة هذه الطبقة عندما تتحدث لرجلٍ عن امرأة، أو عندما تتحدث في كل شأنٍ بين رجالٍ ونساء؟

– يجوز.

– لا يجوز.

وهكذا انطلقت في مخيلة صاحبنا أوهامٌ وأشباحٌ لا عداد لها في تلك الساعة القصيرة، ولا يُقَاس عليها كل ما شهدته تلك الدار من الأوهام والأشباح ومن المبكيات والمضحكات.

ولم ينقذه مما استغرق فيه إلا انتهاء التمثيل وزحام الخروج ولقاء بعض الأصحاب وسهرة كثرت فيها الشواغل وطال الحديث.

ونام تلك الليلة على أثر انفضاض السهرة وكان يُقدِّر أنه لن ينام.

ولكنه لو قضى الليل كله ساهرًا لما عمل في اليقظة إلا الذي عمله وهو نائم، حلم وتفكير وهواجس وخيالات تضطرب وتصطخب ويتبع بعضها بعضًا، ولا تميل إلى جانب الرضا لحظة حتى تعود إلى جانب الوسواس والمنغصات.

ثم استيقظ في الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقًا غريبًا يجهل ما عنده من نيةٍ وشعور: أتنوي أن تنتظرها في الموعد؟

فما هو إلا أن وضح السؤال في خاطره حتى شعر بأنه سؤال غريب يدل على ما وراءه، وحتى بدت الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار.

وهنا دارت في سريرة هذا الرجل — هذا الرجل الواحد — مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين، كلاهما مُصرٌّ على عزمه، وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله إلى رأيه، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه في هذا الحوار من أساليب الإقناع والإغراء والرياء والتصريح: كيف لا تنتظرها؟ أتعطي سيدة موعدًا ولا تنتظرها فيه؟ أهذا يليق برجل؟